19

منطقة الشرق الأوسط : هل يتمّ إصلاحها؟

لقد أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية صراحةً أنها قامت بإستبعاد دولة واحدة خارج نطاق المنظومة. فإذا لم يتمكن القادة الخارجيين من التوصل إلى رقم الهاتف الخاص بـ أوروبا، فسيتم التحدث إلى أمريكا على نحو مباشر. لقد كان هناك بيت أبيض واحد فقط على الرغم من كونه قصر ضيافة داخل مدينة مغمورة بآراء السابقين. ومع ذلك، كان لدى القليل من سكان السهول بجمهورية جورجيا قلق بشأن التعقيدات القائمة بالعالم ووضع أمريكا بالنسبة للعالم. وقلّما ما كان يتم الاعتداء على العالم الخارجي بطريقة مباشرة، داخل مثل هذه الجالية التي تتكون من حوالي 500 فرد. فلقد كانت زراعة الفول السوداني، بالنسبة لعائلة كارتر، نشاط تجاري صعب بدرجة كافية. حيث تبعد ولايات السهول كثيرا عن واشنطن، بينما تبعد أطلنطا، التي تعتبر أقرب مدينة، عن واشنطن بحوالي 120 ميل. إلا أن مدينة ستافروبول كانت معروفة ومشهورة عالميًا. فإنه من بالغ الحكمة إدراك أن وجهات النظر التي تم صياغتها بشأن العالم هي وجهات نظر خاصة بالسياسيين والمسئولين داخل مدن العاصمة. ومع ذلك، لقد وصل الأفراد داخل واشنطن إلى قمة السلطة من خلال الفرضيات والتصوّرات المسبقة التي تمّت صياغتها في كل مكان في غموض وابهام. فلقد كان يظهر في بعض الأحيان ارتباط القوى المحلية بالقويالعالمية بدرجة أكبر مما كان يتوقعها الفرد.

السهول تتحدث

لذلك تمّ انتخاب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في نوفمبر 1976 بمعاونة السيد جيمي كارتر، المحافظ الأسبق لولاية جورجيا. فقد ذكر البعض أن انتخابه يقصد به ضمّ الجنوب إلى دولة أمريكا أخيرًا. وقد كان يقصد بذلك اختفاء الحرب الأهلية أخيرًا التي ألقت بظلالها لفترات طويلة. ومع هذا، فقد تحققت الوحدة الأمريكية في ظل ضغوط جديدة. فلا تزال دولة أمريكا تقلّد عدد كبير من الجماعات السكانية حيث ظلّ العالم يؤثر في الولايات المتحدة الأمريكية مثلما كانت تؤثر الولايات المتحدة الأمريكية في العالم. حتى أن ولاية جورجيا، في أعقاب انهيار وسقوط فيتنام، قامت باستجلاب عدد قليل من سكان فيتنام. لقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية مستودع للحريّة العالمية. لقد ساهم التأكيد على ذلك في شفاء جراح الدولة. حيث كان يعتقد ذلك أيضًا الرئيس القادم.

لم يتم استضافة اجتماعات القائد العظيم العالمي داخل مزرعة الفول السوداني الخاصة بوالد كارتر. ولم يحضر جيمي كارتر كورسات الجامعة المتميزة ولكنه قام بتسجيل اسمه داخل الأكاديمية البحرية الأمريكية التي تخرّج منها عام 1946. لذلك لم يرى هو أيّ من خدمات الحرب كما حدث مع نظرائه السابقين له. ولقد قام هو بالسفر على نطاق واسع كقائد للغواصة داخل الاسطول البحري على مرّ السبع سنوات القادمة، على الرغم من حصول احد رجال الغواصة على وجهة نظر محدودة بعض الشيء عن العالم.

ومع ذلك، كان هناك بعض اللحظات الظاهرية – التي قضى أيام قليلة منها داخل موانئ بحرية متعددة القائمة على طول الساحل الصيني عام 1949. حيث تمّ رؤية نيران مخيّم القوات الشيوعية على التلال القائمة خلف الموانئ الواقعة تحت سيطرة الوطنيين. لقد استعادت ذاكرة كارتر صور فترة الصبا التي تم تقديمها في شرائح من خلال الإرساليات المعمدانية؛ أثناء قضاء إجازة قصيرة داخل جورجيا. ثم قام بعد ذلك بإنقاذ النيكل والدايمات الخاصة به من أجل مساعدة المبشرين في عملهم بتوفير المدارس والمستشفيات؛ إلى جانب معرفة السيد المسيح. لقد قام عم له بإرسال بطاقات بريدية لشنغهاي وتشينغداو . لذلك تم زحف العالم الخارجي حتى داخل السهول.

لقد كان كارتر، خلال الحملة الانتخابية القائمة عام 1976، قادرًا على عرض الفضيلة والقيم حيث كان أجنبيًا وعلى علم بالحالة المزاجية للبلاد. فلم يكن محاميًا أو عضوًا داخل الكونجرس بل لم يؤدي خدمته العسكرية داخل واشنطن. فلقد كان هناك أمريكيين آخرين يرغبون في تجديد مكانة دولتهم بالنسبة للعالم. ولقد استدعى كلمات خاصة بنبي العهد القديم، ميكا أثناء إلقاء خطابه الافتتاحي. فقد تتطلب أخطاء الماضي الحديث إعادة تأكيد على المبادئ الأساسية للدولة. فهذا يعني التزام مطلق بحقوق الإنسان، تقيّد أو تحديد التسليح بالإضافة إلى التخلص من جميع الأسلحة النووية كهدف نهائي. لقد ذكر كارتر أن أمريكا تعتبر دولة نموذجية ومثالية ولكنها ربما تحتاج إلى الاعتراف بحدودها. فلم تتمكن من الإجابة على جميع التساؤلات القائمة ولا من طرح حلول لأي مشكلات أيضًا. لقد أكّد كارتر على المسئولية المالية، أثناء تحدثه عن اقتصاديات الدولة. لا يمكن اعتبار الحكومة الفيدرالية مثل قرن الخصب العميق جدًا. لقد تعارضت خطابات كارتر مع المراقبين الأكثر حنكة وتهكمًا. حيث آلت تلك الجهود إلى الفشل بالطبع. حيث اختلف المنهج الخاص به بشدّة عن الترابط المسهب للسياسة الواقعية التابعة لـ كيسنجر. وبعد مرور أشهر قليلة عندما وجب على مدير الموازنة التابع لكارتر تقديم استقالته بسبب التجاوزات التي حدثت خلال وظيفته المصرفية السابقة، كانت تلك الإدارة تشبه كثيرًا غيرها من الإدارات الأخرى. لقد تسببت القناعات المسيحية الجريئة الخاصة بالرئيس في إثارة قلق واضطراب أيضًا. فليس من المتوقع من جانب الرؤساء اتخاذ تلك القناعات بجدّية تامة. لقد كان كارتر يشير عادةً إلى الأوروبيين ولكن اكتشف في الحال من خلال تعاملاته مع كل من تاتشر، شميت، جيسكار واندريوتي أنه كان لا يوجد نموذج قياسي لـ الأوروبي. كان يبدو أن الشقوق الثقافية داخل العالم الأمريكي الأوروبي واسعة ومتزايدة وليست متناقصة. حتى أنهم أكثر اتساعا من العالم في حد ذاته، كما اكتشف ذلك الرئيس.

لقد صرّح كارتر أنه ليس في إمكان الولايات المتحدة الأمريكية أبدا التعامل بلامبالاة تجاه مصير أو مستقبل الحريات في مكان آخر – وبعبارة أخرى في كل مكان –

على الرغم من قيامها في الواقع بالتعامل بتلك اللامبالاة في بعض الأحيان. فقد كان لديها علاقات قوية عسكرية أو اقتصادية، مع الدول التي تلتزم بالحريات بشكل معتدل. فلن يساهم حتى القيام بإنشاء أو تأسيس مكتب جديد لحقوق الإنسان داخل وزارة الخارجية الأمريكية في حدوث أي تغيرات. لقد تمت المصادقة على حقوق الإنسان عالميًا ، لمدة ثلاثين عامًا منذ القيام بالتوقيع على ميثاق الأمم المتحدة. حيث أكدّت اتفاقيات هلسنكي التأكيد عليهم من جديد. ومع ذلك لم يكن هناك آليات لتفعيلها أو تطبيقها. كما لم يكن هناك اتفاق عالمي بشأن تحديد تلك الحريات أو تفضيل ملائمتها. حيث كان يعتبر الترابط الاجتماعي، بالنسبة لبعض الدول، أمرًا أكثر أهمية. كما قام الفلاسفة بالتفكير مليّا في تلك المسائل والأمور. حيث كان يستلزم على البيت الأبيض اتخاذ القرارات.

إيران: الحقوق والثورات

عندما قام شاه إيران بقراءة الخطاب الافتتاحي لكارتر في يناير 1977، فلم تكن تلك المرة الأولى لذهاب منظمات حقوق الإنسان إلى المكتب الخاص به.

لقد قام كل من اللجنة الدولية للحقوقيين ومنظمة العفو الدولية بتقديم مستندات هامة بدرجة كبيرة تتعلق بقمع الحريات داخل إيران واستخدام أساليب التعذيب من جانب جهاز السافاك (جهاز الأمن الداخلي). لقد ساهم التأكيد من جانب كارتر في تشجيع المفكرين الإيرانيين على نشر خطابات وعرائض عامة تدعو إلى التغيير. وقد يضغط الدبلوماسيّون الأمريكيّون الآن على شاه إيران من أجل القيام بتطوير الحقوق المدنية. لقد تم الإشارة إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان داخل بعض من هذه العرائض، على الرغم من عدم اعتماد المعارضة الدينية على أي واحدة من تلك العرائض. وفي نوفمبر 1977 بواشنطن، قام رجال الأمن الأمريكيين باستخدام الغاز المسيل للدموع من أجل تفريق حشود الطلاب الإيرانيين – حيث كان هناك في ذلك الوقت مئات الآلاف من الطلاب الإيرانيين الذين يدرسون داخل أمريكا الشمالية وأوروبا – في مظاهرة واحتجاج ضد شاه إيران الذي قام بزيارة البيت الأبيض. لقد كان كارتر الرئيس الأمريكي الثامن الذي التقى به شاه إيران. كما دفع هذا الغاز المسيل للدموع شاه إيران

لإنتاج مناديل خاصة بمسح تلك الدموع. حيث بذل الرئيس أقصى ما في وسعه لعدم فتح وإغماض عينيه بسرعة أمام الكاميرات. فقد كان ذلك أمرًا جديدًا. لقد صرّح كارتر بعد ذلك أنه كان يعتبر شاه إيران رجل محبوب وحليف قوي. كما تم انعقاد مباحثات خاصة فيما بينهما اقترح الأمريكيين من خلالها تخفيف السياسات الصارمة المتّبعة من جانب الشرطة. فقد أجاب شاه إيران قائلاً إنه بينما تم انحصار أعداد مثيري الشغب في أقليّات ضئيلة، فقد ظل تهديد الشيوعية خطير جدًا.

ومع هذا ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا، اختفى الاستقرار على نحو متزايد. حيث أصبحت إيران واحدة ضمن المناطق المتعثرة أو المضطربة التي أثارت الجدل الإعلامي. فقد كان هناك ، مجموعة من المعارضات لشاه إيران بالأحرى من جبهة واحدة منفردة. كما افترض الليبراليون الغربيون أن المظاهرات التي اجتاحت الشوارع في فصل الصيف دفعته إلى قيام انتخابات حرة – فقد قام بعمل تلك الضوضاء والشوشرة لهذا الغرض. لقد مهدّت تلك الانتخابات الطريق لإيران التي قد تكون بالفعل ملكية دستورية. فهؤلاء المفكرين لم يتوقعوا حدوث تلك الثورة التي تركتهم عالقين ومحصورين. حيث كان للمعارضة اليسارية والدينية (المختلفة في حد ذاتها) أهداف أخرى. كما قام شاه إيران بتغيير الوزراء التابعين له وإغلاق الكازينوهات من أجل مواجهة هذا الانشقاق المتزايد. كما تسببت المظاهرات الحاشدة التي اندلعت في سبتمبر في صدور أحكام عرفية – وفي وقوع العديد من القتلى والضحايا. وتم تعيين حكومة عسكرية بعد ذلك في نوفمبر داخل تلك الدولة التي أصبحت خارجة عن السيطرة. كان يعتقد البيت الأبيض بصورة استثنائية أنه لابد أن يكون مثل هذا الحاكم المحنّك، إلى جانب جيشه الضخم الذي يقف وراءه، معرّضًا للهجوم بشكل مفاجئ. وفي يناير 1979، غادر شاه إيران بلاده في أجازة ممتدة إلى مزيج غير عادي من الاتجاهات. ومع ذلك، لم يتنازل هو عن ملكيته: وبالتالي قد كان هناك اشتباه شائع بتكرار ما حدث عام 1953 حيث قام الأمريكيون بالتخطيط لعودته مرة أخرى. فلم يكن ذلك الهدف داخل واشنطن التي كانت تبحث باستماتة عن "طريق وسط" داخل إيران بين النظام الملكي والجمهورية الإسلامية.

لقد قام الخميني بتنسيق الثورة الإسلامية التي اندلعت من باريس حيث كان يقطن هناك منذ عام 1978 بعد مغادرته دولة العراق. حيث عبر الرجال الغربيين المثقفين داخل حاشيته عن طموحات ديمقراطية. لقد كان يعتقد الخميني نفسه، على الرغم من هذا، أن الديمقراطية ما هي إلا تصوّر أو مفهوم غربي أجنبي. لقد كان الإسلام وحده كافيًا. ولقد تلقي الخميني ترحيبا واسعًا بالمطار خلال عودته إلى طهران في فبراير 1979. على مدى الأربع سنوات القادمة، قام هو وأتباعه بالسيطرة على سواحل ثورية مختلفة حتى الآن. وفي مثل هذا الوضع الجديد، اكتشف الأجانب، بصرف النظر عن سكان البلد الأصليين، أن العلاقة بين السلطة الدينية من جانب واحد والبرلمان المنتخب والرئاسة من جانب آخر علاقة مبهمة وغامضة. فلم يتم الحصول على دولة تحترم حقوق الإنسان كما قام كارتر بتفسيرهم، بسبب تلك العلاقة المبهمة.

ومع ذلك، لم تكن تلك الإدارة تعتزم التدخل وإعادة النظام القديم. لقد تسبّب القيام بالسماح لشاه إيران بدخول الولايات المتحدة الأمريكية لتلقي العلاج الملائم لمرض السرطان في القيام بإحتلال السفارة الأمريكية بطهران في نوفمبر 1979. حيث اشتعل فتيل أزمة الرهائن واستنفدت الكثير من تركيز وانتباه الرئيس إلى ما يقرب من أربعة عشر شهرًا. حيث كانت السياسة النموذجية التي انتهجها هذا الرئيس هو التقدّم بطلب إلى واشنطن من أجل التعامل معها. كما قامت الولايات المتحدة الأمريكية بقطع العلاقات مع إيران في ابريل 1980. لقد تم إبرام صفقة مع طهران وإطلاق سراح الرهائن في آخر يوم له كرئيس للولايات المتحدة الأمريكية في يناير 1981 بعد أن حقق رونالد ريغان فوزًا ساحقًا عليه أثناء الانتخابات القائمة عام 1980. فقد كان هناك تعليقات مخزية بشأن الخطاب الافتتاحي لكارتر الذي ألقاه قبل ذلك بأربع سنوات. بالتأكيد لم يؤدي دعمه أو تأييده لحقوق الإنسان إلى اتجاه الثورة الإسلامية إلى نفس المسار مباشرة، ولكن قد أدى تأييدهم بشكل عام لذلك في جميع أنحاء العالم إلى ظهور تداعيات غير متوقعة بشكل واضح. لقد قام القائد الخميني بوضع الدولة على مسار جديد كان يبدو للغرب أنه إنكار جميع ما كان يعتبره الغرب من العصرية أو الحداثة. حيث لم يكن آية الله الخميني مرتبكًا أو

حائرًا. وفي ظل الاضطراب الهائل للسياسات الإيرانية، لا أحد يستطيع بالفعل معرفة كيفية استمرار رؤيته حتى النهاية. ومع هذا فلن يتم تحقيق هدف الحضارة العظيمة الذي كان يتطلع إليه شاه إيران لفترات طويلة. فقد تسعى إيران الآن لتقديم نموذج ثوري جديد لمنطقة الشرق الأوسط، بل من المحتمل تجاوز هذا النموذج لمنطقة الشرق الأوسط أيضًا.

في سبتمبر 1980 قامت القوات العراقية التابعة للرئيس صدام حسين بغزو إيران. ولقد ظلت حدود منطقة شط العرب، التي تم تحديدها نظريًا بالمعاهدة الموقعة بين العراق وإيران عام 1975 بالجزائر، مثيرة للجدل والنزاع بالفعل. لقد رأى صدام حسين فرصته في ذلك. لقد كان يبدو أن إيران معرّضة للهجوم بشكل غير عاديّ كما كان هناك سبب معقول لافتراض أن، كما تشير الأمور الآن، العالم الغربي بأكمله يعتبر صدام حسين أهون الشّرّيْن. وبعد تحقيق بعض من النجاح الأولي، قاومت القوات المسلحة الإيرانية وكذلك المتطوعين الإيرانيين هذا النجاح. حيث ساهم هذا الغزو في تعزيز النظام الإيراني. حيث قام كل جانب منهما بتفجير المنشآت النفطية أو البترولية الخاصة بالجانب الآخر. وقد نشأ عن ذلك حالة لا انفراج عسكري، ولكن لم يتخلى أي جانب منهما عن القتال والنزاع. لقد قام كارتر بإقناع البابا جون بول الثاني بإرسال خطاب كتابي إلى الخميني بشأن الرهائن الأمريكية ولكن بدون أي تأثير. فليس من حق المسيحيين إدراج أنفسهم داخل العالم الإسلامي. ومع ذلك، فهناك معركة متعددة الجوانب داخل ذلك العالم الآن. وخلال الصراع والنضال من أجل السلطة، قد حدث اضطراب وبلبلة لكل من الدولة والدين مرة أخرى. من الممكن إغواء أغلبية الشيعة داخل العراق، الذين يعيشون داخل الدولة تحت حكم أقليات السنة، من خلال تدخل دولة إيران (مثلما قد يحدث مع الأكراد في شمال العراق). ومن الممكن أيضًا إغواء الأقليات العربية الموجودة داخل منطقة خوزستان الغنية بالنفط والبترول بإيران (بالقرب من الحدود) من خلال دولة العراق العربية. فلم يكن هذا برمّته معركة واضحة بين الدول. وعلى أي حال، يبدو أن النصر الواضح بعيدًا على نحو متزايد. ومع هذا، لم تكن تلك الأزمة مناسبة لكل من الدول

المجاورة والدول الغربية البعيدة.

لم يتم توقع أي شيء من ذلك قبل حدوثه بعامين. وفي نهاية ديسمبر 1977، قام كارتر برد الزيارة إلى إيران ومدح الدولة بكونها جزيرة الاستقرار داخل منطقة الشرق الأوسط المتعثرة. لقد كان يبدو أن هناك توافق، بشكل عام، بين هذا التقييم المؤاسي ومصادر المعلومات التي تم تدفقها داخل وزارة الخارجية الأمريكية. لم تقم الجالية الأمريكية داخل إيران، التي تعتبر جالية تجارية بشكل كبير، بدراسة علم العقائد الشيعيّ. كما لم يقم بذلك الرئيس أيضًا. قلّما ما تقدّم محطات التوقف، على أي حال، التي تم تمثيلها بذكاء من قبل المضيفين، مشاركة جادة بين الثقافات. فلم يحدث ذلك في هذه المناسبة.

فلسطين : الأرض الواعدة؟

لقد قام كارتر بجولة زار فيها كل من بولندا، الهند، المملكة العربية السعودية، فرنسا، بلجيكا ومصر. كما كانت إيران اللاعب الأساسي. وظلت منطقة الشرق الأوسط بالفعل واحدة من أكثر المناطق المتعثرة والمضطربة بالعالم. لقد انضم ملك الأردن إلى كل من كارتر وشاه إيران عشية رأس السنة بطهران من أجل بحث الخيارات الممكنة لإيجاد سلام مقبول داخل المنطقة مرة أخرى. حيث استطاع هؤلاء القادة التحدث إلى بعضهم بطريقة مباشرة؛ لكونهم بارعين في التحدث باللغة الانجليزية بطلاقة. وفي صباح اليوم التالي، اتفق كل من شاه إيران والملك حسين على التوجه إلى المملكة العربية السعودية ومصر لإظهار دعمهما وتأييدهما للرئيس السادات. لقد كانت المرحلة النهائية من تلك الجولة، من وجهة نظر كارتر، تمثلت في اجتماعه برئيس جمهورية مصر العربية الذي اعتمد عليه الآن بدرجة كبيرة. كما استطاعت كل من مصر وإيران، القوى المعزولة، من تحديد مصير الأراضي المحصورة بينهما.

لقد كان هناك حينئذٍ رجل أمريكي كان يعتبر الأرض المقدّسة جزءا خاصا به. ومن ناحية أخرى، كان يمتلك تلك الأرض المسيحيون. كما أنهم عرفوا الكثير عن الطريق المؤدي من بيت المقدس إلى مدينة أريحا من خلال قراءتهم للكتاب المقدّس" الإنجيل". كما كان لدى كارتر، باعتباره المعمداني القارئ للإنجيل، شعور أيضًا بأنه يعرف ذلك الطريق

بحميمية. وبالرجوع إلى ما حدث عام 1973، فقد قبل دعوة رئيسة الوزراء، جولدا مائير، بزيارة إسرائيل. ومن بين الخبرات الأخرى، لقد انطلق مع رئيس بلدية مدينة الناصرة. حيث كان يعتقد أن اليهود الذين تم إنقاذهم من محرقة اليهود يستحقون أن يكون لهم دولتهم الخاصة؛ كما أوضح هذا بعد ذلك. لقد كان هناك توافق وانسجام بين مفهوم الوطن وتعاليم الكتاب المقدس"الإنجيل" لذلك تم فرضه من جانب الربّ. كما كان معجبًا بما يفعله الإسرائيليون. وعند قيامه باستلام السلطة، لا يزال معتقدًا أن إسرائيل هي الأصول الاستراتيجية للولايات المتحدة الأمريكية.

ومع ذلك، لم يكن لديه مشاعر قوية تجاه الدول العربية. حيث اعترف أنه ليس لديه بالفعل أي مشاعر قوية تجاه أي دولة عربية كما أنه ليس لديه معرفة شخصية بأي قائد عربي. حيث ساهمت سلسلة الاجتماعات التي قام بها داخل الولايات المتحدة الأمريكية مع السادات (رئيس جمهورية مصر العربية) والحسين بن طلال (ملك المملكة الأردنية) وكذلك فهد (ولي عهد المملكة العربية السعودية) إلى جانب الاجتماعات التي تمت داخل سويسرا مع الأسد (رئيس دولة سوريا) في إنهاء هذا الاختلال والعجز. ومع هذا، كلما تعامل كارتر مع القادة العرب كثيرًا كلما اكتشف بأن هناك اختلاف مربك بين الضمانات الخاصة والتعليقات العامة التابعة لهم. وكلما تحدّث إليهم كثيرًا، كلما اكتشف أيضًا الاختلاف القائم بين العالم العربي. وعندما سافر إلى الرياض في يناير 1978، كان قد تلقي دروسًا غير متوقعة في صيد الصقر وبشأن نمط الحكومة السعودية. لقد كان للولايات المتحدة الأمريكية العائلات الملكية السياسية الخاصة بها، ولكن تبيّن أن للمملكة العربية السعودية شؤون عائلية ممتدة. لقد كان يواجه عالماً غريبًا – فهذه تلك العبارة التي كان يستخدمها خلال زيارته التالية لتوليه الرئاسة. ومع ذلك، لقد كان دمجه بين الثروة والتعصب أو التزمّت أمرًا مغريًا وجذّابا للكنيسة المعمدانية الجنوبية. وعلى الرغم من هذا لقد قدّمت وسائل الترفية الكثيرة داخل قصر الرفاهية وجهة نظر محدودة بشأن الدولة. لقد كان للمملكة العربية السعودية، نظرًا لاعتمادها على توظيف العمالة الأجنبية بشكل أساسي، العالم الخاص بها داخل البلاد الذي لم يتمكن من ملاحظته. لقد أخبر الملك خالد

كارتر أنه لم يوافق إلا على استقلال دولة فلسطين على الرغم من أنه كان هناك تعديلات بسيطة في الحدود الخاصة بإسرائيل قبل عام 1967.

ومع هذا، كان هناك عامل جديد داخل منطقة الشرق الأوسط. وفي يونيه 1977، بعد إجراء الانتخابات العامة عقب استقالة رابين، تولّى مناحم بيجن (الذي ولد عام 1913) مقاليد الحكم في النهاية. حيث عرقل وصوله إلى السلطة، كما اعتقد المراقبون بالخارج، مسألة الاستقرار. كما سيطر حزب العمال على الحكومات الإسرائيلية منذ عام 1948. لقد كان يرمز حزب الليكود، الذي قام بيجن بإصلاحه ككل، إلى شيء من التغيير بعيدا عن سيطرة وهيمنة اليهود الأوروبيين (اليهود الاشكناز).

وفي هذه الآونة، كان عددهم يفوق عدد اليهود من شمال أفريقيا وأماكن أخرى (يهود سفارديم). فقد كان، هو نفسه من أصل أوروبي لذلك فقد ساعد ماضيه إلى حد كبير في تشكيل حاضره. قُتل كل من والديه وشقيقه في المحرقة وقد وُلِد في إمبراطورية روسيا في بريست ليتوفسك ثم بعد ذلك تلقى تعليمه في جامعة وارسو. كان يري حقيقة معسكر العمل السوفياتي حيث أنه قد وصل إلى فلسطين التي كانت تدار من جانب بريطانيا في عام 1942، بعد التحرك في السنوات القليلة التي كانت تعم فيها الفوضى بعد اندلاع الحرب عام 1939. كان البريطانيون في مكان آخر يحاولون هزيمة ألمانيا النازية إلا أن ذلك لم يردعه عن النشاط الإرهابي ضد إدارتهم في فلسطين حيث أنه كان يرأس عصابة الأرغون منذ عام 1944. كان أكثر عمل إرهابي سيء السمعة قام به كان تفجير فندق الملك دايفيد (الذي خلف خسائر فادحة في الأرواح) في القدس عام 1946. فقد كان على استعداد أن يحارب أي شخص يقف أمام إسرائيل التي يريدها حيث أنه كان دائما ما يتحدث على نطاق واسع عن إسرائيل العظمى بنفس القدر الذي كان يتحدث به الرئيس الأسد في دمشق المجاورة عن سوريا العظمى.

عندما قام بيجن بزيارة واشنطن في صيف عام 1977، فقد إكتشف كارتر أنه رجل جيد إلا أن الرأي الرسمي البريطاني لم يكن يتفق تماما مع ذلك على الرغم من أن كلا الرجلان لم يكن جيدا إلا أن بيجن كان رجل يمكن التعامل معه. أما الإسرائيليين فقد

أخبروا الأمريكيين بأن دولة فلسطين غير قابلة للمناقشة. فقد تصبح على الفور قاعدة سوفيتية الأمر الذي قد يجعل إسرائيل في خطر حقيقي لذلك فأي ضمانات تقدمها الولايات المتحدة سوف تكون عديمة الفائدة. فقد كان يرى أنه من المفترض أن يتم التفكير في كيان فلسطيني لكن ليس دولة بالتأكيد. فقد أكد كارتر وجهة النظر الأمريكية بأن المستوطنات الأمريكية المقامة على الأراضي المحتلة بالقوة العسكرية منذ عشر سنين كانت غير قانونية بموجب القانون الدولي إلا أن بيجن ظل صامتا وفي خلال عودته إلى وطنه، صرحت الحكومة الإسرائيلية أن بعض هذه المستوطنات دائمة.

فقد أعطت هذه الاجتماعات جنبا إلى جنب مع التدقيق الشديد في الخرائط للرئيس بعض اللمحات عن عوالم الشرق الأوسط المختلفة. فلم يكن ذاق من قبل الصحراء أو شرب حليب الإبل إلا أن هذه اللقاءات كانت أكثر من دروس ثقافية. فقد كان كارتر مؤمنا أن لا يزال ممكنا أن تكون هذه بمثابة مقدمات لتسوية سلمية شاملة رافضا أي تعبيرات مألوفة تعبر عن اليأس. في أكتوبر لعام 1977، اتفق كلا من واشنطن وموسكو على أنهما سوف يقوما بعقد مؤتمر السلام في الشرق الأوسط في جنيف في ديسمبر تحت رئاستهم المشتركة حيث سيتم دعوة جميع الدول المعنية. لكن تعرض هذا المخطط لبعض الصعوبات وعلى رأسها اعتراضات إسرائيل على مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية إلا أن المشهد قد تحول بسبب الأخبار التي جاءت من القاهرة في نوفمبر عام 1977. الأمر الذي جعل كارتر يتوقف لفترة وجيزة من أجل مقابلة السادات في أسوان في يناير لعام 1978 وبشكل غير متوقع وجدت فرصة لالتقاط الصور مع زائر آخر وهو هيلموت شميت حيث أن مصر قد تحمل الحل.

مصر: ذهاب السادات منفردا

كان أنور السادات متخصص في المناورات حيث كان طرد مستشرين السوفيات عام 1972 ومن بعده إلغاء معاهدة الصداقة من جانب واحد عام 1976 بمثابة تحديد نمط شخصيته ثم شرع بعد ذلك في تحقيق سياسة الانفتاح أو الباب المفتوح للاستثمار الأجنبي. قام العديد من فاتحي الأبواب المحلية للاستثمار أيضا بضبط الفرص التجارية في هذا الوقت لذلك فقد كان التعبير العلني عن الثروة الفردية واضحا.

ظل الجيل الناصري من ضباط الجيش (الذي كان السادات نفسه واحد منهم) والبيروقراطيين والتكنوقراط في السلطة إلا أن الاشتراكية الناصرية والفكر الذي كان يصاحبها قد اختفوا. لم يعد النظام مهتما بعدم الانحياز الدولي ولكن بدلا من ذلك ركز، إن لم تكن هذه الكلمة مبالغ فيها، على مفارقات الموقف المصري. استمر عدد السكان في الزيادة بشكل سريع وزاد الضغط على الأراضي الصالحة للزراعة. ازدحمت القاهرة وأصبحت مدينة خارج السيطرة. كانت القاهرة، بشكل ما، أقوى دولة في العالم العربي لكنها كانت ضعيفة إلى حد كبير حيث كان اقتصادها غير مستقر. كان متوقعا أن تزيد قدرتها الإنتاجية نتيجة وجود الاستثمار الأجنبي إلا أن ذلك لم يتم بعد. كانت التحويلات التي يرسلها أكثر من مليون مصري الذين يعملون في العديد من البلدان العربية تعمل بشكل حيوي (إلى جانب دخل السياحة وقناة السويس) بالإضافة إلى أن المهنيين المصريين بدأو يبحثون عن فرص لما هو أبعد من ذلك. كان الحاملين لفكرة الباب المفتوح لديهم شغف بالسلع الأجنبية للأقلية التي يمكن أن تتحمل تكاليفها. كان الكرتون المعاصر دائما ما يذكر "ممتاز" يجب أن يتم استيراده عند التحديق في الهرم الأكبر. حدثت أعمال شغب بسبب الغذاء في بداية عام 1977 والتي أدت إلى وجود مقترحات للحد من الدعم الحكومي ولأول مرة منذ سقوط النظام الملكي تم استخدام القوات لوقف هذه الاضطرابات. كانت هذه الاضطرابات بمثابة تحذير للولايات المتحدة الأمريكية والحكام العرب أن الجماهير لن تقبل المزيد من التقشف. كان النظام يسمح بتكوين أنماط سياسية مختلفة بحذر شديد لعدة سنوات. بدأت المنصة الموالية للحكم تظهر بعد ذلك بوقت قصير من خلال الحزب الوطني الديمقراطي الذي أدى إلى إغراق التجمعات الأخرى بالإضافة إلى أن ذلك التحرر الجزئي قد أدى إلى زيادة النشاط الديني. دعت منشورات الإخوان المسلمين، المحظورة، جميع الكيانات المصرية أن تلتزم بأحكام الإسلام وانتقدت النظام بأنه وكالة للتغريب. كان هناك بعض العلامات على وجود توتر بين الجماعات الإسلامية وبعض المسيحيين الأقباط. وعاد السؤال القديم مرة أخرى: هل كان المصريون عرب أم مصريين في المقام الأول أم مصريين فقط؟

كان كل ما تقدم هو الخلفية المحلية التي دعا على إثرها الرئيس السادات إلى التحدث في مجلس الشعب في القاهرة في 9 نوفمبر 1977. وبعد بضعة أشهر من الافتتاح الذي قام به كارتر، قام السادات بزيارة واشنطن- ليكون أو ل رئيس مصري يقوم بذلك- لمعرفة ما تعنيه حقوق الإنسان العالمية في الممارسة العملية. وخلال محادثتهما، شعر كارتر بأن مصر لديها نية لتحقيق التقدم والازدهار بدون تأخير. وفي خطابه في نوفمبر، رفع السادات نفسه فوق المجادلات الإجرائية حيث أنه أعلن أنه مستعد للذهاب إلى جنيف لحضور مؤتمر السلام متعدد الأطراف المقترح حيث أنه قال أنه سيدعم شرعية حقوق الشعب الفلسطيني في هذا المؤتمر بما في ذلك إقامة دولتهم. كان هناك العديد من الأمور الغير متوقعة في هذه الملاحظات- حتى الفقرة الأخيرة منها التي أعلن فيها استعداده للذهاب إلى أقاصي الأرض لتجنب إراقة الدماء في المستقبل فأنضم إليه عرفات الذي كان يستمع إليه وأخذ يصفق إلى أن شعر بالفزع عندما أكتشف أن أقاصي الأرض التي يقصدها السادات في الواقع تعني البرلمان الإسرائيلي (الكنيست). وبعد ذلك التصريح بيومين وجه بيجن الخطاب للشعب المصري مباشرة على التلفزيون الإسرائيلي قائلا بأن محاولات تدمير الدولة اليهودية سوف تكون بدون جدوى وأنه ليس هناك سبب لهذا العدوان. في العصور القديمة، كانت كلا من مصر وإسرائيل حلفاء ضد العدو المشترك من الشمال وكانت النتيجة واضحة حيث وصلت الدعوة على النحو الواجب في القاهرة 20 نوفمبر عندما وصل السادات وقام بإلقاء خطاب مطولا الذي رد عليه بيجن.

كان كلا الرجلين يعلمان بأن العالم بأجمعه يشاهدهما في ذهول كما قال السادات. كان خطابها يحمل العديد من الكلمات والعديد من التلميحات الرمزية حتى وأن كان تحقيق التقدم الحقيقي أمرا آخر. لم يحمل رد بيجن المطول أي إشارة للشعب الفلسطيني. ومع ذلك، فقد صرح السادات بأنه ليس هناك سلام بدون الفلسطينيين وبدون الانسحاب من جميع الأراضي المحتلة من قبل قوات الاحتلال إلا أن الجانب الإسرائيلي أنكر أن شعبه قد استولى على دولة أجنبية حيث أنهم عادوا إلى موطنهم.

و على ما يبدو فلم يتم اغتنام هذه الفرص لعدة شهور بعد هذا الخطاب. وكالعادة،

أعربت التجمعات العربية عن تضامنها حتى وأن لم يكن هناك مجال لهذا التضامن. إلا أن هذه المرة، فقد أدانت وسائل الإعلام الرسمية في دمشق والرياض حج السادات فيما عدا الرباط ومسقط اللتان كانتا موافقتان على ذلك أما في القاهرة نفسها فقد كان هناك ردود أفعال متضاربة ومتباينة. كانت فكرة أن يتحدث السادات عن الأمة العربية أمرا موروثا. كان السادات يتطلع إلى تحول كبير في الموقف الإسرائيلي الذي من شأنه تخفيف عزلته. كانت المحادثات المباشرة بين كلا من المصريين والإسرائيليين تسير وفي هذه النقطة، فقد دعا كارتر كلا الرجلان إلى كامب ديفيد في الميريلاند في سبتمبر 1978 لفترة من المفاوضات المكثفة التي سوف يسهلها هو وقرنائه ومن ثم فقد تبين أنها تجربة جيدة. أما باقي العالم فقد كان يزعم تلاشي عقول المشاركين. في نهاية المطاف، تم الاتفاق على وثيقتين متعلقتان بالسلام المصري/ الإسرائيلي وبشأن عملية السلام في الشرق الأوسط وبطبيعة الحال فقد كان هناك الكثير من التفاصيل في كلا منهما. كان أهم ما جاء في هذا الاتفاق هو انسحاب إسرائيل من سيناء خلال فترة لا تتجاوز ثلاث سنوات. في المقابل، تعترف مصر بإسرائيل كدولة والموافقة على دخول قناة السويس ومضيق تيران. كان لابد من إجراء المزيد من المفاوضات بشأن أي شكل من أشكال الحكم الذاتي الذي يمكن الفلسطينيين (تحت السيادة الإسرائيلية) من امتلاك الضفة الغربية وقطاع غزة. احتفظت كلتا الحكومتان بموقفهما بشأن القدس. كان من المفترض أن يتم إبرام معاهدة رسمية في غضون ثلاثة شهور إلا أنه لم يتم إبرامها إلا في 26 مارس 1979. قام كارتر بنفسه بزيارة كلا من القاهرة والقدس من أجل تقديم المساعدة الدبلوماسية. كان من المفترض أن يكون هناك بعض المفاوضات من أجل انسحاب الأردن وإقامة حكم ذاتي فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة الذي من شأنه أن يوفر حكما ذاتيا كاملا للسكان إلا أن هذه الكلمات بدت فارغة وخاوية.

فقد تسببت كامب ديفيد ومعاهدة مارس 1979 في إدانة مصر في عواصم عربية أخرى وقد سخروا من السادات وكأنه خائنا للقضية. وفي هذه الأثناء، قاد الرئيس الأسد جبهة الصمود للمخلصين. فقد تم طرد مصر ونبذها من جامعة الدول العربية وتم إزالة

مقرها من القاهرة. كان هناك حديث أيضا حول الوحدة السورية- العراقية بالإضافة إلى أن معظم الدول العربية قد قطعت العلاقات الدبلوماسية مع مصر. كانت هذه التدابير توضح أن ذلك كان اتفاقا ثنائيا وليس مستوطنة شرق أوسط كاملة. ظلت الكثير من القضايا المحرجة، على الأقل الأمور المتعلقة بالقدس، متوقفة بدون تسوية أو توضيح- كل ذلك كان بلا شك نتيجة محاولة تحقيق شيئا ما. فقد صرح المنتقدون أن الفلسطينيين قد خانوا وطنهم مقابل دولارات أمريكية (حيث كانت الملفات المرفقة مع كامب ديفيد تنص على مساعدة أمريكية لمصر تقدر سنويا بحوالي 1.5 بليون دولار أمريكي، المبلغ الذي زاد بشكل مطرد بعد ذلك).

فقد تضرر السادات من الهجوم الكلامي عليه سواء خارج أو داخل مصر، الأمر الذي أدى إلى إصابته بنوبة تشنج مؤقتة. على الرغم من أنها كانت واحدة إلا أنها استمرت بشدة لعدة سنوات ثم بعد ذلك بدأت بعض الاتصالات مرة أخرى والتي بدأت مع الأردن ومن ثم فقد عادت أموال النفط العربي تظهر مرة أخرى في القاهرة.

و على الرغم من ذلك، لم يكن السادات نفسه هو من قام بالخطوات المبدئية (حتى تم إعادة مصر إلى جامعة الدول العربية حتى عام 1989). في أكتوبر لعام 1981، بعد تصاعد العنف الطائفي، قام القتلة الإسلاميين باغتياله حيث أنه قام ببعض التنازلات وتعديل الدستور لتسميه الشريعة باعتبارها المصدر الرئيسي للقانون القومي المصري. وبالتزامن مع ذلك، مضى النميري في السودان في نفس الاتجاه، وعند القيام بذلك فقد فاقم التوترات بين الشمال والجنوب في بلاده. فقد اقترح المعلقين أن السادات قد ختم مصيره بلده عن طريق اتخاذ هذه الخطوات. ومع كل ذلك، فلم يذكروا كيف ينبغي أن يتم استيعاب الإسلام.

كان التواجد الأمريكي كبيرا في الجنازة حيث كان يحضر ثلاث رؤساء أمريكيين سابقين وهم نيكسون وفورد وكارتر وهو حدث غير مسبوق. بعد وفاة الشاة في مصر في الصيف فقد أصبح الشرق الأوسط الذي كانوا يعتقدون أنهم يفهموه ويمكنهم الاعتماد عليه، قد ينتهي قبل نهايتهم. ووجد الباحثون أن جنازة السادات كانت غير أي جنازة اعتادوا عليها. فبالنسبة لكارتر، كان كل شيء يبدو غريبا حيث أنه قال أن حقا لا يفهم

الوسط الذي جاء منه الرجل الذي كان يسميه صديقه. فإذا تم انتخاب كارتر مرة أخرى عام 1980، فقد افترض السادات أن كلا الرجلان باستطاعتهما أن يعودوا للقضية الفلسطينية بقوة جديدة والتوصل إلى التسوية النهائية بعيدة المنال. كان السادات يعتقد أن جبل سيناء سوف يكون الموقع المثالي للاحتفال ويمكن أن يحضر البابا لاتخاذ الإجراءات المناسبة. كان كل ذلك مجرد خيال. فقد أظهر الحاضرين في الجنازة أن دول العالم لم تجتمع حيث أن حضور بيجن يضمن أنه لا يوجد دولة عربية ممثلة إلا السودان.

وعلى المدى القصير، فقد كان المنهج الجديد الذي بدأه السادات أمنا. تم ترشيح حسني مبارك، نائب الرئيس منذ عام 1975، من قبل مجلس الشعب بعد يوم من اغتيال السادات. وقد أوضح على الفور أن مصر مستمرة في التزامها باتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة السلام. فقد كان يحاول تحقيق التوازن بين الحزم في التعامل مع المتشددين والإفراج عن بعض منتقدي نظام السادات. كانت الحكومة الجديدة في عام 1982 تتضمن اثنين من الأقباط يشغلون مناصب بارزة. كان مبارك أصغر عشر سنين من الرئيس السابق ولم يكن أحد الضباط الذين وضعوا مصر في مسارها الصحيح. وفي هذا الصدد، فقد كانت هذه بداية جديدة ولكن النظام لا يزال في الأساس نظام عسكري. أصبح مبارك سياسيا رئيس الحزب الوطني الديمقراطي إلا أن تدريبه وحياته المهنية كانت في القوات الجوية المصرية. وفي عام 1983، تم استعادة العلاقات الدبلوماسية مع الإتحاد السوفياتي. ظل مبارك لعدة سنوات، قبل عقدين من الزمن، يتلقى تدريبه كضابط قوة جوية في الإتحاد السوفياتي وموسكو وغيرها. فقد كان العالم السوفيتي هو العالم الذي كان يعرفه بشكل مباشر وليس الغرب الذي كان منحازا له بقوة بالإضافة إلى أن زوجته ولدت في مصر وكانت من أم بريطانية وكان والدها المصري يدرس الطب في بريطانيا. في هذه المرحلة بالذات لم يكن هناك توضيح أفضل من أن مصر ظلت في مفترق طرق حيث يتقاطع الشرق والغرب والشمال والجنوب.

لم يتم توقيع معاهدة السلام المصري الإسرائيلي مارس 1979 في الشرق الأوسط ولكن تم توقيعها علنا في حديقة البيت الأبيض بواشنطن حيث تشارك كلا من الشرق

والغرب على حد سواء. لكن هل كان ذلك مجرد عرض؟ ففي العام الماضي قام الناشر الأمريكي راندوم هاوس بإصدار كتاب تحت عنوان "الإستشراق". فقد كان من المتوقع أن يصبح هذا الكتاب ظاهرة عالمية حيث تم ترجمته إلى العديد من اللغات الأوروبية بالإضافة إلى الفارسية واليابانية والصينية. كان مؤلف الكتاب إدوارد سعيد أستاذ اللغة الإنجليزية والأدب المقارن بجامعة كولومبيا في نيويورك على الرغم من أنه ولد في القدس عام 1935. فقد قضى والده رجل الأعمال وقتا في الولايات المتحدة وأصبح مواطنا أمريكيا وأصبح فيما بعد مسيحيا أنجليكيا وانتقل إلى القاهرة. التحق إدوارد بمدرسة هناك وأصبحت اللغة الإنجليزية هي لغته الأولى على الرغم أنها كانت تتزاحم مع اللغة العربية طوال حياته. بدأ إدوارد في التدريس في برينستون وهارفارد وكولومبيا إلا أنه وجد في أمريكا أصله الفلسطيني مرة أخرى على الرغم من أن سيرته الذاتية فيما بعد أو ضحت أنه كان دائما رجل في غير موضعه. كان كتاب "الإستشراق" مثير للجدل. فقد كان له منذ البداية معجبيه ومنتقديه إلا أنه لم يتم أبدا تنقيح النص لذلك فقد كان له طابعا مقدسا على الرغم من أن كاتبه كان مفكر علماني (كان هناك القليل جدا من الكتاب حول الدين). كان موضوعه يتحدث عن الكتابة الغربية عن الشرق مع تعبير قاسي عن التمييز العنصري وتشويه سمعه الشرق تمهيدا لاستعماره. فقد كان يعتقد أن هذه العقلية لا تزال متوارثة. وذهب آخرون أن الغرب الذي يتحدث عنه سعيد كان انتقائيا وبناء بشكل غير قابل للتصديق. لكن ماذا عن الألفية التي وجد فيها الغرب نفسه في موقف دفاعي ضد إسلامية الشرق؟ لذلك، فقد قالوا بأنه ليس هناك توازن إلا أن قيمته كعرض تاريخي كان مشكوك فيه ولكن بعض القراء سواء في أوروبا أوأمريكا أوالشرق الأوسط كانوا يرون أنه يوضح كيف كان العالم في الشرق والغرب من عام 1978/ 1979.

خسر كارتر الانتخابات في شهر نوفمبر 1980. فلم يكن لديه الكثير ليقدمه لتأكيده على الحقوق. كانت الفجوة بين الطموح والإنجاز في اتساع وتزايد مستمر إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية في العهد الذي خلفه بقيادة رونالد ريغان سوف يكون لها ملاحظات وتعليقات مختلفة. ومع ذلك، فلا يزال الشرق الأوسط كما هو .